العرب
الأحد 2021/06/06
السنة 44 العدد 12081

في هذه الأيام العصيبة.. تقشفوا ولكن بعيدا عن الثقافة

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

لا بد أن يصيب التقشف في دول العالم مناحي كثيرة من الحياة. يقل المال لأسباب مختلفة شخصية وعالمية، فيبدأ الناس بالإنفاق بشكل أكثر حذرا و"يمطون دولاراتهم" كما يحب الأميركيون أن يقولوا. أول شيء يتوقف التبذير. ما ليس له ضرورة فلا ضرورة لاقتنائه. ثم يتحول الشراء إلى عمليات قنص وتدقيق للأسعار المتوفرة ومفاضلة بين الأنواع، هذا أغلى وهذا أفضل بالنسبة إلى سعره. تعمّر السيارة أكثر، وتصير تنتبه إلى إطفاء الضوء في الغرفة وأنت تغادرها. يعاد إحياء دور المطبخ في البيت ويقل الذهاب إلى المطاعم. تقل مرات الذهاب إلى السينما، ويتوقف ارتياد المسارح، وتصير المتاحف بالدخول المجاني هي مقصدك. يتأجل شراء الكتب.

الإنفاق على الثقافة ليس ترفا. ووضعها على قائمة التقشف هو إجحاف في إدراك القيمة المعنوية لدورها في هذه الحياة

إذا كان التقشف خطوات عملية يتخذها الفرد ليواجه بها أزمته، فإنه قد يكون مؤشرا لكارثة على مستوى الدول. الثقافة من أوائل ضحايا التقشف على مستوى الحكومات.

الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون له رأي آخر. فرنسا تواجه الكثير من المشاكل الاقتصادية منذ بداية الأزمة العالمية عام 2008. زادتها جائحة كورونا همًا، وانكمش الاقتصاد كما لم يحدث من قبل. لكن ماكرون –وتبعه الرئيس الألماني فرانك – فالتر شتاينماير– يرى أن مسيرة التعافي لا يمكن أن تنطلق إلا بحصة من عودة الحياة إلى الثقافة.

مبادرة ماكرون بمنحة مالية ثقافية للشباب جديرة بالاعتبار. أنت شاب إذًا أنت تستحق 300 يورو تنفقها كما تحب على مناح ثقافية؛ سينما، مسرح، متحف، شراء كتب، مشاركة في مهرجان أو حضور حفلة موسيقية. المهم أن تتذكر ألّا تشبع بطنك فقط في هذه الأيام العصيبة، بل أشبع عقلك –أو روحك إذا جاز التعبير– بشيء ثقافي.

هكذا فقط نعود إلى إيقاع حياتي سويّ بعيد عن الغرائزية في البحث عن الطعام وفي حب البقاء والنجاة من المرض والوباء. هذا ما جعلنا نخرج من البدائية نحو التقدم. هذا ما حوّل العصور المظلمة في التاريخ إلى مراحل التنوير ثم النهضة. وباستعارة ما قاله الرئيس الألماني فإنه لا يمكن للمجتمع أن يبقى على قيد الحياة دون هذا اللقاء مع الفن ودون التبادل والتعايش والجدل؛ "فأي مجتمع سيتوقف وجوده دون هذا الفضاء العام".

عصور التنوير والنهضة ارتبطت بالفن وصعوده. ينفق الأثرياء وأصحاب الجاه والسلطة على الفنانين، فتنتشر الفنون ويبدأ الجميع في تذوّق الثقافة. الكنيسة القاسية التي أمعنت في التخويف وأسست "محاكم التفتيش" هذّبت نفسها بنفسها عندما حوّلت جزءا معتبرا من أموالها إلى عمارة الكنائس الجميلة ورعاية رسم لوحات ونحت تماثيل معاناة المسيح وصلبه.

تسابق المعماريون والبناؤون لإقامة الصروح وحل المشاكل الرياضية والهندسية المعقدة المرتبطة بالتشييد، فخرج الناس بالمحصّلة من تلك الأبنية البائسة التي ميزت عصور الظلام في أوروبا. تنافس عباقرة الفن في عصرهم في تقديم الأكثر إبداعا. من دون رعاية مالية من ثريّ أو أمير أو راعي كنيسة، هل كنا سنرى لوحة/سقف "خلق آدم" لمايكل أنجلو؟ هل كان لعبقرية دافينشي الهندسية أن تبلغ ما بلغته بالتوازي مع عبقريته الفنية في جدارية "العشاء الأخير"؟ البلاط ينفق فيكتب نيكولو مكيافيلي نصائحه للجالس على العرش في كتاب "الأمير". البابوية تهتم بالشعراء فنقرأ "الكوميديا الإلهية" لدانتي.

خطوات إلى الخلف في التاريخ لنقف عند الصروح الثقافية العربية الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وتونس وفاس والأندلس. يحلو للإسلاميين أن يفخروا بالفتوحات العسكرية. لكن ما يفخر به العربي المسلم المنفتح حقا هو تلك الصروح المعمارية التي شيدت على يد المهندس المسلم وتلك النصوص الأدبية التي كتبت لمؤانسة الخلفاء والأمراء. شعراؤنا الأهم ما كانوا يخجلون من كتابة القصائد في مديح الأمراء الكرماء ولا كانوا يترددون في هجاء الملوك البخلاء. هل نستطيع مجادلة المتنبي مثلا في ما كان يقوله؟

متى يبدأ الهدم الحضاري؟ يوم تهمل الثقافة وتعامل على أنها ترف. هذا ما يخبرنا به التاريخ، سواء في أوروبا أو في الشرق. الغرائزية القائمة على إشباع البطن والخوف من الموت تحيل الأبنية مهما كانت ضخمة ومعقدة البناء، بل والمترفة، إلى ما يشبه الكهوف للإنسان البدائي. أنت تعيش لتأكل وتتحاشى الفناء. القيمة الإضافية للحياة تتراجع وتختفي، لتأخذ معها قسطا كبيرا مما تراكم لدى البشرية من العمران الإنساني وما نسميه اليوم حضارة.

الإنفاق على الثقافة ليس ترفا. ووضعها على قائمة التقشف هو إجحاف في إدراك القيمة المعنوية لدورها في هذه الحياة. الحكومات هي الوريثة المعاصرة لطبقة النبلاء والأثرياء والأمراء والبلاط والكنيسة والمقصد البابوي. لا يمكنها أن تهمل الثقافة بحجة التقشف.

الأزمات الاقتصادية ليست من صنع المثقفين مهما أنفقوا وأسرفوا. إنها أخطاء السياسيين ومحرقة أسلحة وتموين العسكريين ونتيجة لصراعات البلدان وتناطحها الغرائزي على المكانة. الثقافة بريئة من جريرتها. بل الثقافة منقذ منها حتى وإن بدت وكأنها تمد يدها متسولة.

الثقافة تنقذ البشر من حدود الغريزة الضيقة

الشيوعية البديلة عن الرأسمالية تقدم أجرا دائما مدى الحياة

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

منذ انتشار الجائحة وتعطّل معظم أنشطة الإنسان في العالم، والكتّاب والمفكّرون والمحللون السياسيون يتنافسون في تصوّر ما بعد كورونا، ولئن اختلفوا في ذكر الأسباب التي جعلت الإنسان عاجزا عن مقاومة فايروس تافه، برغم الإنجازات العلمية والتكنولوجية الباهرة التي حققها، فإنهم يلتقون في معظمهم في تحميل الرأسمالية تردّي الأوضاع الاقتصادية والبيئية والصحية في العالم.

ففي رأيهم أنّ الرأسمالية، في وجهها النيوليبرالي، دمّرت خلال أربعين سنة حياة البشر مرتين: مرّة بالضيق والخوف من الحاضر والآتي، بوضعهم في موضع هشاشة، فرائس سائغة بين أيدي سيّدين مجنونين هما السّوق والشغل؛ ومرّة بجعل الحياة على كوكب الأرض عسيرة، بل وممتنعة، بسبب الاحتباس الحراري والمناخ الخانق وأخيرا الجائحة.

فما يمكن ملاحظته اليوم أن الرأسمالية تهدّد الجنس البشري بالانقراض، وأن الفضاء الديمقراطي الذي كان يتم التفاوض داخله حول تعديلات في سير الرأسمالية لم يعد قائما، ولا بديل غير تفاقم الأوضاع أو قلب المنظومة بتمامها وكمالها. وبما أن الأقلية الماسكة بكل الخيوط والمستفيدة من كل الأوضاع، سواء في السّراء أم في الضرّاء، ليست مستعدة للتنازل عن امتيازاتها، وأن تضافر هذه الأزمة العضوية، بالمعنى الغرامشي للكلمة، مع الانتقال الإيكولوجي يجعل كل محاولة لتعديل مسار التراكم الرأسمالي مستحيلا، فإنه لا يبقى سوى البحث عن مخرج من الرأسمالية.

هذا المخرج يحمل اسمًا هو الشيوعية، التي تُطرح بديلا عن اقتصاد يقوم على نظرية "التنمية أو الموت". ولكن كيف للشيوعية أن تعود في مرحلة اتسمت بهيمنة رأسمالية مطلقة، في مقابل انهزام قوى النضال الاجتماعي وغياب أي مشروع بديل مشترك يحظى بالأغلبية؟

قد يبدو الأمر غريبا أن تُطرح الشيوعية كأفق يمكن أن يحل مشاكل الإنسان في هذا العصر، نظرا لاقترانها بمشروع سياسي راديكالي مظلم، واقتران الستالينية منذ سبعينات القرن الماضي بشيوعية توتاليتارية قاتلة؛ فبعد "ماضي وهم" لفرنسوا فوري، و"كتاب الشيوعية الأسود" لستيفان كورتوا، بدا أن مرحلة استعمال الكلمة إيجابيا أغلقت نهائيا، ليحل محلها جانبها الإجرامي في حق الإنسان والإنسانية، ولم يعد الجدل يحوم سوى حول عدد ملايين الموتى الذين راحوا ضحيتها.

غير أن المسألة الشيوعية لم تختف تماما، إذ ظلّت تستعمل في بعض المنظمات والأحزاب برغم ضعفها وهامشيتها، وظلت كذلك موضوع أعمال نظرية نقدية وخاصة فلسفية، تحاول إعادة استكشاف المصطلح وتحديد "خصوبته" وفق مقاربات مستحدثة، تحلّل أسس هذا المصطلح الذي جمع بين تاريخ طويل وظرف حديث: إذ ساهم سقوط جدار برلين وزوال الكتلة السوفييتية منذ نهاية الثمانينات في تحريره، وإن قليلا، من تهمة التوتاليتارية، مثلما ساهم في دفن فكرة بديلٍ قابل للاستمرار في الوقت نفسه.

ثم ما لبث أن عاد يُستعمل بشكل إيجابي، ولو محدود، لدى فئات قليلة تحاول إعادة الحياة للأمل الذي حملته فكرة الشيوعية أول ظهورها. ولكن دون أن يكون مرتبطا بأفق سياسي محسوس نظرا للسياسات النيوليبرالية العنيفة التي تتحكم في كل شيء، فليست الغاية كما يقول المعنيون بالأمر تهيئة سياسية للمرور إلى الشيوعية كتجاوز للرأسمالية أو إلغائها، بل تقديم الشيوعية على نحو يجمع بين إرادة التغيير وممارسة الاحتجاج والنقد الراديكالي والتنظير الأكاديمي.

والاستعمال الحديث للمصطلح، في وجهه الإيجابي، يعكس تطلعا إلى إعادة بناء بدائل، إن لم تكن ملموسة، فمحدَّدة بالاسم على الأقل، واقتراحه كاحتمال ممكن.

إن ما يلفت الانتباه أن أغلب المقاربات الشيوعية ما بعد الماركسية تجري في الحقل الفلسفي، في محاولة لتحديد المفهوم دون أن تكون متصلة بالمسألة الاجتماعية التي هي المجال التقليدي للتأمل النظري حول التغيير السياسي والاجتماعي. ولكن أصحابها يختلفون في تناول المسائل الأساسية للاشتراكية والشيوعية، إذ أن كل واحد يركز على هذا البعد أو ذاك من البديل المقترح، فبادیو يركز على الدولة والحزب، وإرنستو لاكلو يقدم إستراتيجيات الاستيلاء على السلطة، وأنطونيو نيغري يسبّق العمل والملكية شأن منظري الشائع المشترك.

التاريخ أثبت أن كل الأيديولوجيات تبدأ جميلة على الورق، تَعِد الناس بالرفاه، ثم تكشف عن وجهها البشع

أضف إلى ذلك أن البحث عن بديل، على المستوى الاجتماعي والسياسي، لا يمكن أن يتحقق في ظل الهزائم المتتالية للحركات العمالية أمام الرأسمالية في وجهها النيوليبرالي الذي لم يعد يراكم مساوئه بل بات يسبب كوارث لا حصر لها.

من بين أولئك المقتنعين بأن الشيوعية هي البديل برنارد فريو، عالم الاجتماع والاقتصاد المتخصص في الضمان الاجتماعي. ففي كتابه "رغبة في الشيوعية" أبرز خصوصية محددة في هذا النوع من الحماية الاجتماعية التي كانت تدار حتى عام 1967 من قبل العمال، وتقدم خدمات وتعويضات خارجة عن المنطق الرأسمالي، حيث صار الضمان الاجتماعي والوظيفة العامة أشبه بجزيرتين مستقلتين داخل المنظومة الرأسمالية.

اقترح فريو توسيع ما هو كائن إلى نوع من الأجر الدائم مدى الحياة، أجر يعترف بأن كلّ إنسان راشد عاملٌ، ويُسند إليه حسب شبكة تتراوح بين ألف وسبعمئة وخمسين وخمسة آلاف يورو حسب المؤهلات والخبرات المكتسبة.

كذلك المفكر وعالم الاقتصاد الفرنسي فريديريك لوردون، فهو أيضا يعتقد أن الشيوعية هي وحدها التي يمكن أن تنقذ العالم وتقضي على كل أشكال التفاوت، أو تحدّ منه على الأقل. وفي رأيه أننا لن نستطيع إنقاذ الأرض ومن عليها إذا تواصل هذا النظام الرأسمالي، ومن ثَمّ لا بدّ من العمل على ترغيب الناس في الشيوعية، هذه المنظومة التي ما عاد أحد يؤمن بها منذ الفشل الذريع الذي مني به النظام السوفييتي، بالعودة إلى كارل ماركس.

ولوردون ينهل كثيرا من أفكار فريو، لاسيما مقترحه حول "الأجر الدائم مدى الحياة" وإن أطلق عليه اسم "ضمان اقتصادي عامّ" لا يُمنح حسب الوظيفة بل حسب الكفاءة، لتحرير العمال من سوق الشغل وتغيير نمط إنتاجهم بشكل جذري. وفي رأيه أن الشيوعية ينبغي أن تترك مجالا للسوق بخصوص بعض البضائع وما يسمّيه "المقترحات الخاصة" ولكن مع جعلها محلّ تخطيط متجدد، فالخروج من منطق السوق في رأيه يفترض بالضرورة أن تنهض الدولة بتوجيه الإنتاج، وتنشئ تخطيطا اقتصاديا يتركّز على أشياء ضرورية وذات قيمة، بدل الإفراط في استهلاك بضائع تافهة.

يقول جان لوميتر، الأستاذ المحاضر بجامعة باريس 6، في هذا الخصوص "أعتقد أن النيوليبرالية، المعولمة، تجرنا إلى قاع بئر التاريخ، أو إلى زقاق لا منفذ منه ولا نجاة، على كل المستويات الإيكولوجية والاجتماعية والديمقراطية. من المفيد، والعاجل ربما، أن نطرح فكرة الشيوعية في معناها الأوسع، الذي يعني التشارك والشياع، وليس بمعنى 'نسخ لصق' لما سبق، كما كان الشأن في الاتحاد السوفييتي والبلدان التابعة له". ويضيف "في رأيي، ينبغي العودة إلى المصطلح الذي سبق ماركس وخاصة لينين، بالتذكير بإسهامات البناة الأوائل أمثال شارل فوريي وبيير جوزيف برودون وغراكوس بابوف وأوغست بلانكي، وكذلك العناصر الإيجابية في التيارات التاريخية الأخرى من اليسار والأناركية والاشتراكية التي وصفت بالحركات الإصلاحية".

بقي أن نقول إن معظم المنظرين في هذا الباب شيوعيون، وقد دأبوا دائما على تبني الفكرة القائلة بأن ثمة فرقا بين الشيوعية كما تصورها ماركس والشيوعية كما طبقها لينين وستالين، وأن العودة إلى الأصل، النظري، ستكون في شكل طريقة جديدة لمقاربة الأزمنة الكارثية التي تلوح في الأفق، وننسى كلّ ما سُجّل من مآخذ على البيان الشيوعي نفسه.

ولو فرضنا أن الفكرة صائبة وجديرة بأن تكون سلاحا في وجه الرأسمالية فمن سيحوّلها من الطور النظري إلى الطور التطبيقي والحال أن أحزاب اليسار كلها في تراجع مطّرد أمام المدّ الشعبويّ؟ ثمّ أي رأسمالية تواجه هذه الشيوعية والرأسماليات أنواع، تختلف من بلد إلى آخر، فسنغافورة لا تشبه الرأسماليات الغربية أو اليابانية، ورأسمالية الصين التي تخضع للتخطيط والتوجيه لا تشبه أيّا منها؟

لقد أثبت التاريخ أن كل الأيديولوجيات تبدأ جميلة على الورق، تَعِد الناس بالرفاه والحياة الكريمة والخير العميم، ثم تكشف عن وجهها البشع، فتسحق الفرد سحق التراب تحت الأقدام، وتصادر حتى تفكيره لأنها تفكّر بدلا عنه، فيغدو كل راغب في الخروج منها منفلتا عن العقال، يهدد السلطة القائمة، يحق نفيه أو سجنه وتعذيبه وقتله، لأن الأيديولوجيا منسجمة مع نفسها، ولكنها تختلف عن الواقع.

يقول ليفي ستروس "لا شيء يشبه الفكر الأسطوري سوى الأيديولوجيا السياسية".

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية